

## الباب السادس

### في انتصار الحق وظهوره

الفصل الأول :

\* في انتصار الحق بالحجة والبيان .

الفصل الثاني :

\* في مكثه وثباته وبقائه .

الفصل الثالث :

\* في انتصاره في النفوس وإيثاره .

الفصل الرابع :

\* فيما يكون للباطل من إملاء واستدراج .

الفصل الخامس :

\* في العاقبة والمآل .



## الفصل الأول

\* في انتصار الحق بالحجة والبيان.

الآيات

١ - ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(الاعراف: ١١٨)

٢ - ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ  
لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾

(الأنفال: ٧، ٨)

٣ - ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ  
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

(التوبة: ٣٣)

٤ - ﴿ لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ  
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴾

(التوبة: ٤٨)

٥ - ﴿ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ  
عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

(يونس: ٣٦)

٦ - ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾

(يونس : ٨٢)

٧ - ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

(الاسراء : ٨١)

٨ - ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾

(الأنبياء : ١٨)

٩ - ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنَعِي وَذِكْرٌ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾

(الانبياء : ٢٤)

١٠ - ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

(الفرقان : ٣٣)

١١ - ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدْءِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾

(سبأ : ٤٨ ، ٤٩)

١٢ - ﴿ سَتْرِيهِمْ أَإِتَيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(فصلت : ٥٣)

١٣ - ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

(الفتح : ٢٨)

١٤ - ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾

(النجم : ٢٨)

١٥ - ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

(الصف : ٩)

الحق من ربك . وبه أرسل الرسل وأنزل الكتب وخلق السموات والأرض وبه يحيى الموت ويبعث الخلق . ومن أجله يكون الحساب والجزاء ويوفى الناس دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين . وبه ومن أجله يساق فريق إلى الجنة وهى حق ويساق فريق إلى النار وهى حق :

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(الزمر : ٧٥)

فلا شىء فى البداية ولا شىء فى المصير إلا الحق .

وقد يغفل كثير من الناس عن هذه الحقيقة وهم فى متعة الحياة وزينتها فيذكرون سرايبها وينسون حقيقتها ويسوقهم ظمؤهم ويغريهم طمعهم بمتابعة السراب وهم يحسبون ماء وما هو بقاء . حتى اذا جاؤوه لم يجدوه شيئاً ووجدوا الحق الذى نسوه واستقبلوا الحساب الذى شغلهم عنه السراب .

ولكن هل خفى الحق عليهم وغاب عنهم حتى وجدوه في حساب وجزاء وتلبسوا به في موت ونشور وجنة أو نار؟ هل خفيت دلائله أو التبست آياته؟ هل كان بعيدا عنهم حين جحدوه أو خوطب به غيرهم حين أنكروه؟ إن ذلك لم يكن بل كانت فيهم آياته وأشرفت عليهم شمسهِ وبيناته وما من شأن من شئونهم الا وللحق فيه دليل وفي أنفسهم وفي الآفاق. للحق آيات وآيات. فما غاب الحق وما خفى وما انقطعت منافعه، ولا جفت روافده، أو أطفئ نوره، أو جهل رُسله. وما سكتت عبره وعظاته. أو سكتت زواجره وآياته. بل ترى آيات الحق في كل زمان ومكان. تراها في فلق صبح، وفي سكون ليل. وفي نبتة زرع، وفي عطاء ضرع. تراها في تسخير ليل ونهار، وشمس وقمر، وفي سجود نجم وشجر، وفي نعم بروبحر. وفي نسمة هواء وإنزال ماء. تراها في إلهام نحل وتسخير طير. تراها في حدائق غناء، وفي نجوم السماء. وفي السحاب المسخر بين الأرض والسماء. تراها في شئون الخلق. في نشأة طفل ومشية كهل. في اختلاف السنة وألوان وأرزاق وآجال. تراها في قصر غنى وكوخ فقير. تراها في حياة وموت وإقبال جيل بعد جيل. ورحيل بعد رحيل. في كل شيء للحق اية. وله في كل أمر بيعة وغاية. فما غابت دلائله ولا خفيت آياته ومعجزاته. ولا أنفك عن الناس في فطرتهم ولا كانوا بغيره في نشأتهم ومعاشهم وحياتهم ومماتهم. بل به كانوا ومن أجله خلقوا وبنوره اهدوا. وبكلمة الحق قدموا إلى دنياهم ورحلوا إلى اخراهم ورجعوا إلى ربهم. وبكلمة الحق بعثوا وحشروا وبها امتحنوا وعليها حوسبوا وجوزوا. فمن عذب منهم عذب من أجل الإعراض عن الحق ومن كرم كرم من أجل التمسك بالحق. ولا عذر بعد بيان الجاحد حق، ولا حجة بعد بلاغ لباطل أو مضل ولا بقاء لباطل ولا ضياع لحق.

ومع آيات القرآن في ظهور الحق وبيانه. وفي انتصار حجته وبرهانه وهو يرينا ما كان من قبل وما هو كائن وما سيكون لتبقى الدعوة إلى الحق لا ينفصل فيها ماض عن حاضر، ولا حاضر عن مستقبل. ولا تغيب عبرة الأمس عن اليوم. ولا يعفى عمل اليوم من حساب الغد، بل يمتزج الحديث عن ذلك كله في بيان يتدبر وحديث يهدى للتي

هي أقوم: ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَذَّبَ وَأُتَىٰ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو

(ص : ٢٩)

الْأَلْبَابِ ﴿

فمن ظهور الحق في ماض جاء قوله تعالى : ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾  
الآية في سورة الاعراف .

ومعنى قوله « وقع » أى ظهر ونزل ووجد . والمراد « بالحق » ما جاء به موسى عليه السلام من عند ربه . « وَبَطَلَ » ما كان يسعى إليه فرعون وشيعته ولم يكن ما ألقى به موسى إبطالا لما جاءت به السحرة فحسب بل كان ابطالا لباطل فرعون كله وإزهاقا لما يزعمه ويدعيه . وكانت دلالتة أبعد مدى من إبطال ما صنع السحرة . وكان إيمان السحرة برهاننا على صدق هذه الدلالة وسعة مداها وأنها أبطلت زعم فرعون وادعاءه الربوبية ولم يستطع السحرة أمام ظهور الحق وبيانه إلا أن يخرؤا ساجدين وأن يعلنوا إيمانهم برب العالمين - رب موسى وهارون . وهم الذين أحضرهم فرعون لإبطال ما جاء به موسى وأغراهم بالأجر والقرب منه . فإذا بمن جاء لنصرته يعلن خذلانه وهو يعلن إيمانه برب موسى وهارون . وإذا بالوعد بالأجر ينقلب إلى وعيد بالقتل والتمزيق والصلب .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمْوهٗ  
فِي الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فِسْوَفَ تَعْمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ  
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(الاعراف: ١٢٣ ، ١٢٤)

ان بيان الحق قد كشف زور الباطل وبيتهانه وأزهق وعده ووعيده . فلم يأبه السحرة بوعيد فرعون وقد أيقنوا أن وعيده باطل كوعده وأن الركون إليه خسران وبطلان :

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَّا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ  
مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا  
لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا آكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِي ﴾

(طه : ٧٢ ، ٧٣)

ومن قبل أن يفضح أمر فرعون في يوم حُشِرَ فيه الناس وجمعوا كان بيان الحق أمامه في حوار وقول لين يدعو إلى التذکر والحشية . وفي آية بينة تكفي في العظة والعبرة . ولكنه أصر على عناده وكفره وتولى فجمع كيده ثم أتى . من قبل خوطب بالآيات البينات فلم يدعن لحق ولم ينخلع من ثوب زور وباطل أمر الله موسى وهارون أن يأتياه فيبلغاه رسالة ربه وأن يحسنا القول إليه وأن يبصراه بالعاقبة والمصير . وما ينتهي إليه طغيانه من هلاك وسوء مصير .

﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ٤٣ ۖ فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ  
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ٤٤ ۖ قَالَ لَا رَبِّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا  
أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ٤٥ ۖ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ  
٤٦ ۖ فَأَنبَأَهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بِنِي إِسْرَائِيلَ  
وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ  
الْهُدَىٰ ٤٧ ۖ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ  
وَتَوَلَّىٰ ۖ﴾

(طه : ٤٣ - ٤٨)

وسأل فرعون وأجيب وكان الجواب بالكلمة المبصرة الهادية ذات الحجّة والبرهان .  
فماذا كانت النتيجة مع ظهور الحق وبيانه ؟

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ ٤٩ ۖ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ  
شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠ ۖ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ٥١ ۖ  
قَالَ عَلِمَهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ٥٢ ۖ  
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ  
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ٥٣ ۖ كُلُّوْا

وَأَرَعُوا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿٥٥﴾ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٦﴾

(طه : ٤٩ - ٥٥)

ماذا كانت النتيجة مع البيان الكامل والآيات التي رآها ؟ كان ما ذكر الله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾

(طه : ٥٦)

اي والله - كذب وأبى - وتكشف لنا سورة الشعراء ما كان منه وهو يخاطب بالقول اللين والكلمة الهادية المبصرة . ويحاج عما سأل بالقول السيد والحجة التي لا إبهام فيها ولا غموض .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

(الشعراء : ٢٢ - ٢٩)

ومع ما كان من فرعون من سخرية وسباب واستخفاف وتهديد ووعيد وهو يخاطب بالكلمة ويدعى بالحجة . نرى موسى عليه السلام يستمر في تذكّره وإفاقة من سكرته وغفلته بآية حسية بعد مخاطبته بآيات وآيات توقظ عقله وتلين قلبه . قال له موسى بعد تهديده ووعيده بادخاله في المسجونين وقوله ﴿ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ . قال له موسى :

﴿ قَالَ أُولَٰئِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَآتِ بِهِ إِنَّهُ كَانَ كَمَنَّ مِنَ  
 الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعُ يَدَهُ  
 فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴾

(الشعراء: ٣٠-٣٣)

فهل أفادته بينة الحق وقد رآها وآية الصدق وقد أبصرها ؟

لقد رأيناه يلتفت إلى من استخفهم فأطاعوه . رأيناه يتوجه بالحديث إلى المملأ من قومه  
 استخفافا وإنكارا وتماديا في العناد والجحود :

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ  
 أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

(الشعراء: ٣٤، ٣٥)

فماذا تأمرون ؟ !! وهل تأمر بطانة السوء أو تشير إلا بما يرضى فرعونها وهل ترى إلا  
 ما يراه أو تشير إلا بما أشار إليه أو ادعاه .

يا ويل كل فاجر من بطانته ، وكل طاغية من حاشيته . تشير عليه بأن يجمع السحرة  
 وقد فعل وأن يحشر الناس ليشهدوا وقد فُضح . والبطانة تغريه بعد وقوع الحق وظهوره  
 وإيهان السحرة واستعلائهم على وعده ووعيده - تغريه بمزيد من الطغيان وتدفعه إلى  
 عدوان بعد عدوان :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا  
 فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ فِي الْأَهْتِكِ قَالَ سَنَقْبُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي  
 نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾

(الاعراف: ١٢٧)

أبعد ظهور الحق وبيانه ورؤية آياته وبياناته يكون هذا العناد والاستبداد وتغري المنافع الزائلة البطانة الفاسدة بالحث على التهادى فى الطغيان وارضاء نزوات الطاغية المستبد إلى هذا الحد .

وتقول لفرعون وهى تعرف فساده وطغيانه ﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض﴾ . إن هذه البطانة وهذا الملاء يستحق أن يولى عليه فرعون :

﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّلُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(الانعام : ١٢٩)

فرعون يخاطب من حوله بما حوطب به وسؤل له وتكلم به الملاء من قومه ألم يقولوا له : ﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآهتك﴾ ؟ وهم بذلك يسولون له أن يقتل ويبطش وأن يستبد ويبطش . ها هو يقول لهم ﴿ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد﴾ ؟

ألا تستحق مثل هذه البطانة أن تهلك معه وأن تؤخذ به وأن يؤخذ بها وأن تكون معه فى عذابه كما كانت معه فى كيده . ألا تستحق هذه البطانة التى ترى الحق فتتكبره وتعرفه فتغرى به وتكيد لأهله أن يكاد لها وأن يبطش بها . . هذا موقفها عند مجىء الحق :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ  
ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ  
إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴾

(غافر : ٢٥)

وهذا جزاؤها فى العاقبة والمصير :

﴿ وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا  
غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ  
الْعَذَابِ ﴾

(غافر : ٤٥ ، ٤٦)

احراق بعد اغراق :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ  
يُظْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت : ٤٠)

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٣٨ ﴿ فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانَهُ  
وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ٣٩ ﴿ فَأَخَذْتَهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْتَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾

(الذاريات : ٣٨ - ٤٠)

ذهب فرعون ومن معه وبقي الحق يخاطب الناس به ، وبالعبارة في مخالفته وتكذيبه :  
﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم ﴾ .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى ١٥ ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِاللَّوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٦ ﴿  
أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ١٧ ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ ١٨ ﴿ وَأَهْدِيكَ  
إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ١٩ ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ٢٠ ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١ ﴿  
ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ٢٢ ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ ﴿ فَقَالَ أَنَارِكُمْ الْأَعْلَىٰ ٢٤ ﴿ فَأَخَذَهُ  
اللَّهُ تَكَالُ الْأَخْرَجِ وَالْأُولَىٰ ٢٥ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَىٰ ﴾

(النازعات : ١٥ - ٢٦)

نعم : بقى الحق ظاهرا بحجته ظافرا بنصرته عزيزا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا  
من خلفه . بقى الحق في بيان يتلى وآيات ترى وتُشهد . بقى الحق في ثباته وأصالته ونفعه  
وحسن عاقبته . وذهب كل باطل زعم أنه يدحضه أو يخفيه حين يدمر أهله أو يقتل الذين  
يأمرون به ويدعون إليه . بقى الحق حجة لا تغلب وسلطانا لا يقهر وبرهانا لا يغيب .  
وذهب كل فرعون كفر به أو صدَّ عنه . وهلك كل طاغية جحدته أو تنكر له وأخذ كل ظالم  
كره بره وحارب عدله واتبع سبيلا غير صراطه المستقيم .

﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ . . . ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ .

## ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

(التوبة: ٣٣)

هو الذى أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم «بالهدى». وهو القرآن . هدى للناس وهدى للمتقين . «يهدى للتى هى أقوم». «ودين الحق» هو الإسلام . وخصه بالذكر مع أنه داخل فى الهدى لبيان شرفه وعظم مكانته . «ليظهره على الدين كله» . قيل إن الهاء فى قوله «ليظهره» عائدة على الرسول صلى الله عليه وسلم أى ليعلمه شرائع الدين كلها ويظهره عليها حتى لا يخفى عليه شىء منها . وقد روى ذلك عن ابن عباس . وقال غيره من المفسرين إنها راجعة إلى الدين الحق والمعنى ليظهر دين الإسلام على الأديان كلها وهو ألا يعبد الله إلا به .

قال أبو هريرة والضحاك وذلك عند نزول عيسى عليه الصلاة والسلام فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا فى الإسلام . ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن ابى هريرة رضى الله عنه فى حديث نزول عيسى عليه السلام قال النبى صلى الله عليه وسلم وتهلك فى زمانه الملل كلها الا الإسلام<sup>(١)</sup> .

وقد أجمل الماوردى فى تفسيره ما قيل فى قوله ﴿ليظهره على الدين كله﴾ . فقال : فيه ستة تأويلات .

أحدها : يعنى عند نزول عيسى عليه السلام فإنه لا يعبد الله تعالى إلا بالإسلام : قاله أبو هريرة .

والثانى : معناه أن يعلمه شرائع الدين كله ويطلععه عليه ، قاله ابن عباس .

والثالث : ليظهر دلائله وحججه ، وقد فعل الله تعالى ذلك . وهذا قول كثير من العلماء .

والرابع : ليظهره برغم المشركين من أهله .

(١) الفتوحات الالهية : تأليف سليمان بن عمر العجيل الشافعى الشهير بالجميل . المتوفى (١٢٠٤هـ) .

والخامس : انه وارد على سبب، وهو أنه كان لقريش رحلتان، رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن والعراق، فلما أسلموا انقطعت عنهم الرحلتان للمباينة في الدين فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى عليه ﴿ليظهره على الدين كله﴾ يعنى في بلاد الرحلتين وقد أظهره الله تعالى فيهما.

والسادس : أن الظهور الاستعلاء، ودين الإسلام أعلى الأديان كلها وأكثرها أهلاً، فقد نصره الله بالبر والفاجر والمسلم والكافر. فروى الربيع عن أنس عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله يؤيد دينه بأقوام ما لهم في الآخرة من خلاق»<sup>(١)</sup> ١٠هـ.

وإظهاره على سائر الأديان وعلى الذين لا يدينون دين الحق كائن وسيكون.  
ولا خلاف في اظهار دلائله وحججه وانتصار بيانه وبرهانه في جميع الأحوال.

فكم من ناس دعاهم إلى اتباعه سماع آية من آياته وبينه من بيناته فتحولوا من عداوته إلى مناصرته ومن الصد عنه إلى الدعوة إليه والجهاد في سبيله.

وهذا الانتصار في الحجة والبرهان واقع من بداية أمره والناس يُصدون عنه ويعذبون فلا يزيدهم ذلك الا تمسكا به وثباتا عليه . سل بلالا والمستضعفين . سل آل ياسر ومن قتل منهم ماذا صنع بيان القرآن وهدايته فيهم . بل سل عمر بن الخطاب وهو من هو في جاهليته وإسلامه ما الذى حوله من حال الى حال . إنه البيان الحق سمعه فاقشعر جلده ولان قلبه وسأل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ليتبع وينصر وقد كان من قبل يسأل عنه ليسىء ويخذل . إنه البيان في حجته وبرهانه وحلاوته وغلبته وعزته وسمو مقاصده وهدايته . ألم تقصد ديار الإسلام فانتصر القرآن - وهو الحق - عندما عجزت السيوف وتحول من قَصْدَ إبادته وتدمير أهله إلى نصرته والدعوة إليه والدفاع عنه ؟ ألم يقع ذلك للتتار ويقع في كل زمان .

وانك لترى مع ضعف أهله قوة انتشاره . ومع ضراوة الصد عنه ترى امتداد نوره وعزة

(١) ذكر البخارى في «كتاب الجهاد» باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر» .

واورد الحديث رقم (٣٠٦٢) عن ابى هريرة وفيه «انه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» .

بيانه . فلا يضعف بضعف أهله ولا يخذل بخذلانهم . بل يصدع بالحق في وجه مكذبيه ومخالفيه ويخاطبهم خطاب عزيز واثق ويكلمهم كلام كريم مجيد منتصر ويحكم بينهم بالحق ويقوم بالعدل والقسط دون نظر لمؤيديه أو مخالفه :

﴿ وَإِنَّهُ لَكِنْبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

(فصلت: ٤١، ٤٢)

ولأن الحق من الله وحده . فان بيانه وبرهانه يحق في واقع . فيرى واقعا ما يعُدُّ به وما يخبر عنه . ويظهر به ما تحفيه الصدور وتوسوس به النفوس . وتنكشف أساليب المكر والخداع والاجتهاد في الحيل والمكايد فيُفصح به منافق ويؤخذ ظالم كافر ويبشر به مؤمن صالح . فالبيان الحق من الله الحق لا يكون مجردا عن حياة الناس أو بعيدا عن شؤونهم بل يرى صدقه فيهم ودلالته في أحوالهم وحجته وبرهانه في القضاء القاطع والأمر النافذ .

فحديث القرآن حديث صدق وحق - له رفعتة وسموه في التعبير والأداء وحقيقته في الواقع والقضاء لأنه صادر من الخالق الذي أحاط بكل شيء علما وهو على كل شيء قدير . وليس ككلام البشر قد ينفصل الأمر فيه عن النفاذ ويختلف البيان عن المبين . وقد يكون إرضاءً للفكر وتُحْدِيراً للنفس وشغلاً لها عن حقيقتها والنظر في غدها وغايتها .

فأنت تقرأ في القرآن الكريم ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ .

وترى تحقيق الوعد في لقاء بدر بين فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة . وترى نصرا يحق به الإسلام ويظهر ويبطل به الكفر ويزهق في لقاء لا تعادل فيه بين الفئتين في عُدِّ ولا عُدِّد . لقاء قضى الله أن يتم وأن تدفع كل فئة إليه ولو انتفت الأسباب الداعية إليه عند الفريقين : ﴿ ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا

ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم ﴿ (الأنفال : ٤٢) .

فالسبب التى دعا إلى الخروج فى أول الأمر عند المؤمنين التعرض للعرى التى فيها أبوسفیان وهى عائدة من الشام . والسبب الذى دعا إلى خروج المشركين هو الاستجابة لنداء أبى سفیان أن تخرج قريش بجمعها وقوتها لحماية تجارتها .

والسبب الداعى للخروج عند الفئتين قد انتفى وسلمت العير وأخبرت قريش بذلك ولكنها ركبت رأسها وأبى فرعونها إلا أن يصل إلى ماء بدر ويذبح الجذور ويدق الطبول وتسمع عنه العرب فتظل تهابه إلى أبى الدهر كما كان يقول . والمسلمون مع الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبروا أن العير قد نفدت ولم يكونوا قد خرجوا من أول الأمر لذات الشوكة ولو كان ذلك لأعدوا لها واستعدوا ولكنهم أخبروا بوعد الله فى حديث صدق وبلاغ حق فاستجابوا طائعين واثقين بوعد الله مع قلة عددهم . فليتم اللقاء ولينفذ القضاء ويرى تحقيق الوعد ولو كان المؤمنون قلة ويساق أهل الكفر إلى مصارعهم ولو انتفى السبب الداعى إلى خروجهم .

وتسمع الدنيا كلها عن مصرع فرعون هذه الأمة ومن معه من رؤوس الكفر فتظل تلعنهم إلى أبى الدهر . ويقرأ من يقرأ كتاب الله فىرى مطابقة الحديث للواقع ويشهد نصر الله بين فئتين ليس بينهما تكافؤ . فيغنم القارىء المتدبر بالمعرفة والتبصرة . ويعود بالثقة فى كل ما وعد الله به وأخبر عنه . واليقين بأن ما جاء منه هو الحق فيكون بيان القرآن - كما أخبر الله - هدى وموعظة للمتقين وتبصرة وذكرى لكل عبد منيب ويكون انتصار الحق بالحجة والبيان مقترنا بانتصار دلالاته فى شئون الخلق بلا تبديل أو تحويل . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

وعندما تقرأ فى كتاب الله إخبارا عن المنافقين :

﴿ لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى  
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴾

(التوبة : ٤٨)

ترى الحديث قد امتد بنوره فكشف خبايا النفوس وأظهر ما أخفته واجتهدت في تدبيره . كما ترى حالها عند مجيء الحق وتحقيق النصر وهى سادرة في غيها مستخفية في نفاقها . فترى انتصار الحق في بيانه مقترنا بانتصاره في كشف كل ما يخالفه في الواقع . ولا ترى في إخباره عوجا . بل تراه قيما ينذر ويبشر في ثقة . ويميز الخلق بأعمالهم دون محاباة أو مجاملة . فلا يبقى في حياة الناس مجال أو عذر لاتباع ظن أو تخمين - وهم يسمعون كلام رب العالمين .

﴿ وَإِنَّهُ لَلذِّكْرُ لِلْمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

(الحاقة : ٤٨ - ٥٢)

والحق - في باب الاعتقاد - لا يطلب بالظن والتخمين وإنما يطلب بالعلم واليقين ولقد ضل من ضل لاتباعهم الظن فيما يعتقدون وخضوعهم لهوى أنفسهم والحق لا يتبع الهوى . والظن لا يغنى من الحق شيئا .

﴿ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا طَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

(يونس : ٣٦)

﴿ وَمَاهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾

(النجم : ٢٨)

﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾

(النجم : ٢٣)

ان سبيل الحق حجة وبرهان وعلم ويقين . والظن لا يغنى من العلم اليقيني والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع شيئاً . ومعرفة المعلوم على ما هو به لا يكون بالتقليد واتباع الهوى وانما يكون بالمعرفة والحجة والبرهان .

والقرآن الكريم يعلم الناس أن يكون البرهان سبيلهم فيما يؤمنون به ويعتقدون :

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءِالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾

(الأنبياء : ٢٤)

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾

(المؤمنون : ١١٧)

﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتٌ أَن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(النمل : ٦٤)

وإذا فقد البرهان وبطلت الحجة اتبع الظن وما تهوى النفس وكان المآل هو الباطل والضلال والجزاء هو العذاب والخسران ولا عذر وقد جاءهم من ربهم الهدى .

وإذا كان سبيل الحق حجة وبرهان فان انتصاره حتم في كل جدال أو خصام . ولن يقف أمامه باطل في هذا المجال . ولا ثبات للباطل ولا بقاء اذا جاء الحق أو بدت طلائعه .

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

(الاسراء : ٨١)

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ

(الأنبياء : ١٨)

الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾

﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ ۝٤٨ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يَعِيدُ ﴾

(سبأ: ٤٨، ٤٩)

وخذلان الباطل امام حجة الحق وسلطانه أمر لا يخفى وزهاقه وذهابه عند مجيئه في حجته ونوره ونفعه وجنده . أمر تراه كما ترى ذهاب الظلام عند الضياء وترى تلاشي الزبد وذهابه جفاء عند سيل الماء، وترى تطايره عندما يوقد الناس النار ابتغاء حلية أو متاع فلا ثبات له في بأس، ولا بقاء له في شدة وما علق الباطل بشيء إلا وتطاير عند شدة ونكص عند لقاء وذهب جفاء عند تحرك أمواج الحياة . واندثر مواتا عندما يرمى بقذائف الحق فلا يبديء ولا يعيد .

قال الماوردي<sup>(١)</sup> في تفسير قوله تعالى ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ . الآية فيه ثلاثة أقاويل .

احدها : أن الحق الكلام المتبوع . والباطل المدفوع . ومعنى يدفعه أى يذبه ويهلكه كالمشجوج . تكون دامغة في ام رأسه تؤدي لهلاكه .

الثانى : أن الحق القرآن والباطل إبليس .

الثالث : أن الحق : المواعظ، والباطل : المعاصى، قاله بعض أهل الخواطر .

ويحتمل رابعا : - أن الحق الإسلام والباطل الشرك .

وفى قوله تعالى : ﴿قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب﴾ قال فيه تأويلان :

احدهما : الوحى . قاله قتادة . (الثانى) بالقرآن رواه معمر : وفى قوله «يقذف»

ثلاثة أوجه : (أحدها) يتكلم ، (الثانى) : يوحى (الثالث) : يلقى .

﴿وما يبديء الباطل وما يعيد﴾ فيه ثلاثة أوجه (احدها) ان الباطل الشيطان رواه

(١) النكت والعيون : تفسير الماوردي : ابى الحسن على بن حبيب الماوردي البصرى، (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ)، تحقيق خضر محمد خضر، مراجعة الدكتور عبدالستار أبو غده .

معمر. (الثانى) أنه ابليس ، رواه خليلد . (الثالث) أنه دين الشرك . قاله ابن بحر .

وفى ابداء الباطل واعادته ثلاثة أوجه (أحدها) لا يخلق ولا يبعث . قاله قتادة (الثانى) لا يحيى ولا يميت . قاله الضحاك . (الثالث) لا يثبت اذا بدا ولا يعود إذا زال قاله ابن بحر .

وفى قوله تعالى من سورة الاسراء : ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ . قال : فيه ثلاثة تأويلات .

أحدها : أن الحق هو القرآن . والباطل هو الشيطان ، قاله قتادة .

الثانى : أن الحق عبادة الله تعالى . والباطل عبادة الأصنام ، قاله مقاتل بن سليمان .

الثالث : ان الحق الجهاد والباطل الشرك . قاله ابن جريج .

﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ . أى ذاهبا هالكا .

وانتصار الحق بالحجة والبيان يقطع السبيل على المعاندين فيدمغ باطلهم ويقمع عنادهم . فاذا أتوا بسؤال أو مقترح يريدون به القدح فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو استنكروا واستبعدوا ما يخبرهم به ويحذرهم منه جاء الجواب الذى يرد باطلهم ويدفعه والحق الذى يدمغه ويزهقه .

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

(الفرقان : ٣٣)

﴿ولا يأتونك بمثل﴾ أى بصفة عجيبة من باطلهم فى قدح أو مقترح . ﴿إلا جئناك بالحق﴾ . أى الذى يقمع تلك الصفة . كما قال ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ .

﴿وأحسن تفسيرا﴾ . أى بيانا وهداية عناية بك وبما أرسلت من أجله ، وخذلانا لأعداء الحق وخصوم الرشاد<sup>(١)</sup> .

(١) تفسير القاسمى المسمى محاسن التأويل : للقاسمى .

نعم يأتي الرد عليهم بالحجة القاطعة والحكمة البالغة التي يبهت بها أهل الكفر ويخشع لها أهل اليقين والصدق وتزيدهم إيماناً . وكلما أوردوا شبهة أو أتوا بسؤال أجيبوا بالحق الذي لا تخفى دلالته ولا تنكر هدايته .

فمن مقترحاتهم التي يرونها قاذحة في رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم داعية إلى مخالفة ما حكاها القرآن الكريم عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ . وهو قول يلاحقه القرآن فلا يبقى له أثراً ولا لقائله ملجأً أو مدخلاً .

﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ وَوَجَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾

(الأنعام : ٨ ، ٩)

لقد ظنوا وهم يقترحون أنهم وجدوا المانع لهم من الايمان وظفروا بما يتعللون به في المخالفة والانكار . فإذا بالجواب يأتي فلا يبقى لهم مانعا يلودون به أو مدخلا يأوون إليه بل يأخذهم أخذاً فيكشف عن حقيقتهم ويظهر دوافعهم ويربهم ما هم عليه من جهالة وضلال وهم يقترحون أو يسألون :

﴿ وَمَا نَعَّ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٤٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَكٌ يَمَشُورٌ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا ﴾

(الاسراء : ٩٤ ، ٩٥)

وما أكثر ما أثاروا من شبه . وما أبدوا من استنكار وأظهروا من عناد :

﴿ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٤٣﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي

صُدُّورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٥١﴾

(الاسراء: ٤٩ - ٥١)

هكذا يجيء الرد على استنكارهم واستبعادهم أن يبعثوا. يجيء في جملة واحدة ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾؟ ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾.

وفي الرد ما فيه من إلزام وإيقاظ وتقريع على غفلتهم ونسيانهم:

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا

يَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا

(مريم: ٦٦، ٦٧)

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾.

(يس: ٧٨)

﴿ونسى خلقه﴾ يالها من غفلة وجهالة قادت أصحابها إلى ضرب الأمثال ودروب الباطل والضلال: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا﴾. وقالوا: ﴿إذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا﴾. يقولون ذلك وقد نسوا أنهم لم يكونوا من قبل شيئا مذكورا. الانسان فيه الدليل على ما استنكره أو استبعده وينساه. ويُذَكَّرُ به فلا يفتق من غفلته ولا ينفك من جهالته يعترف بأن الله خلقه وفي الخلق ما فيه من آيات وبيانات ويستنكر أن يبعث أو يعاد. وتأتى الحجة عليه في نفسه قاطعة مزهقه لباطله ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾؟.

ومن ضربهم الأمثال: قولهم ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾. ويأتى الجواب مبطلا لشبهتهم مظهرا للحكمة والرحمة: ﴿كذلك لتثبت به فؤادك﴾. أى تقويه على القيام بأعباء الرسالة والنهوض لنشر الحق بين قادة الجهالة. فان ما يتواتر إنزاله لذلك أبعث للهمة واثبت للعزيمة وأنهض للدعوة من نزوله مرة واحدة.

﴿ورتلناه ترتيلا﴾. أى فصلناه تفصيلا بديعا لا يلحق شأوه ولا يدرك أمره<sup>(١)</sup>.

(١) محاسن التأويل: للقاسمى.

ولو تتبعنا ما يأتون به من مثل وما يجيء به القرآن لرأينا انتصار القرآن في جميع الأحوال بالحجة التي لا تقاوم والحكمة التي لا يجهل خيرها ولا يخفى نورها ولرأينا أن الحق المنتصر يقدم مع الحجة عظته وعبرته وهدايته وتبصرته . ويأخذ بيد الإنسان لكي يرفعه من كبوته ويوقظه من غفلته ويخرجه من ظلمته في رفق ورحمة . فانتصاره بالحجة يقترن بالهداية والتذكرة ويفتح الباب لمن عاداه أن يلوذ إلى رحمته وحماه ولا يقنطه أبدا من رحمة الله . بل يعد بالعفو والمغفرة لمن أسلم وأتاب . من قبل أن يأتي الموت أو يقع العذاب :

﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(الزمر: ٥٣- ٥٥)

فآيات الله في الافاق وفي الانفس وهي تتأخى مع آيات الله المنزلة على نبيه صلى الله عليه وسلم في مخاطبة الانسان وهدايته إلى الحق تجعل الحجة مرئية مشاهدة لا يقنع بها العقل فحسب بل تشاهدها الحواس وتنعم الحياة وتلين الجلود وتخضع القلوب إلى ذكر الله . فترى الآية للإنسان كله وترى البيان مخاطبة لعقله وطمأنينة لقلبه لا يعزله عن دنياه ولا يلهيه بها عن اخراه . فيتسق البيان مع الفطرة ويجد الانسان هدايته إلى الحق وهو يمشى في مناكب الأرض ويأكل من الرزق . فلا ترى آية القرآن وحجته بعيدة عن شئون الإنسان وحياته ، ولا ترى آية الله في الآفاق وفي الأنفس تختلف مع آية الوحي في تبصرة الانسان وتذكرته . بل تتأخى الآيات كلها وتتسق في مخاطبة الإنسان وهدايته ودعوته إلى الحق في جميع أمره . وتمتاز آيات الله كلها وتتأخى لتحقيق غاية ما أברה وأكرمها هي الأخذ بيد الإنسان إلى الحق وهدايته إلى الصراط المستقيم بالحجة والبيان .

﴿ سَتْرِيهِمْ أَإِنتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ  
أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(فصلت : ٥٣)

﴿ حَمَّ ﴿١﴾ نَزِيلِ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنْ فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ لَأَيُّتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَةٌ  
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ  
مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيْفِ الرِّيحِ آيَةٌ لِّقَوْمٍ  
يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ  
اللَّهِ وَآيَاتِهِ يَتُومِنُونَ ﴾

(الجناتية : ١ - ٦)

